فلاّحو سوريا: صُنّاعٌ للتاريخ أمْ أداةٌ له؟

هشام صفيّ الدين*

«أنا أوّلاً وأخيراً، وليَعلمْ ذلك كلُّ مواطنٍ سوريّ وعربيّ خارج سوريا، فلاّحٌ ابنُ فلاّح. الاستلقاء وسط سبلات الحبوب أو على أرض الدرس، في نظري، يساوي كلَّ قصور العالم.»(١)

حافظ الأسد، ٨ آذار ١٩٨٠

يعكس كلامُ الرئيس السوريّ السابق حافظ الأسد عن جذوره الفلاّحيّة ميزتين أساسيتين لتاريخ سوريا الحديث. الأولى هي أنّ تاريخ سوريا القرن العشرين، من محاربة الاستعمار وصعودِ الوعي القوميّ إلى بناء الدولة والصراع على السلطة، لا يمكن فصلُه عن تاريخ فلاّحيها. والميزة الثانية أنّ هذا التاريخ يشكّل تحدّيًا فكريًا للمفهوم السائد أكاديميًا من أنّ طبقة الفلاّحين طبقة ثانويّة (Subaltern) أو غير نخبويّة في المجتمع.

* - باحث أكاديميّ في دراسات الشرق الأوسط، جامعة تورونتو، كندا.

١ - حنّا بطاطو، **فلاّحو سوريا: متحدّرو وجهاء ريفها الصغار وسياستهم** (پرنستون: دار جامعة پرنستون للطباعة، ١٩٩٩)، ص ١٩٣.

هل يمْكن أن نقيّم هاتين الميزتين من خلال البحث عن صورة الفلاّح في تاريخ سوريا المكتوب؟ وكيف يصوّره لنا بعضُ المؤرّخين؟ وما الدورُ الذي يعطونه إيّاه في الحراك الاجتماعيّ والعمل السياسيّ؟ وهل يمكننا، من خلال قراءة هذا التاريخ فقط، أن نكوّنَ صورةً واحدةً متجانسة عن الفلاّح السوريّ، كفردٍ وكطبقة، أمْ أنّ هناك رواياتٍ مختلفةً (بل متناقضة) في هذا التاريخ؟ وبناءً على هذه الصورة/الصور، هل يظهر الفلاّحُ صانعًا للتاريخ أمْ أداةً له؟ وإلى أيّ مدى؟

يحاول هذا المقالُ الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال مراجعة بعض الأمثلة من الكتابات الكلاسيكيّة التأريخيّة عن سوريا لحنّا بطاطو وعبد الله حنّا، ولغيرهما من الأكاديميّة الغربيّة كرايموند هنّيبوش وبرتْز فوكر. ولكنْ قبل الخوض في محتوى هذه الكتابات، كي نقيّم مدى صحّة تصنيف الفلاّحين في سوريا كطبقةٍ ثانويّةٍ أو «سبألترن،» فإنه يجب النظرُ في تعريف هذا المفهوم.

تتبنّى ستيفاني كرونِنْ، في كتابها عن الطبقات (أو الجماعات) الثانويّة في الشرق الأوسط، تعريفَ رانجيت جوها القائل بأنّ الثانويين هم مجموعةٌ من الناس تحظى بمرتبةٍ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّةٍ وإيديولوجيّةٍ دنيا مقارنةً بباقي/أغلبيّة المجتمع[١] ــ وهو تعريفٌ قد لا يختلف كثيرًا عن المفهوم الماركسيّ للطبقة العاملة، وإنْ بحُلّةٍ ما بعد حداثويّة. وهي تزعم أنّ تأريخ هذه الطبقات يكاد ينحصر بتقنيّات النجاة أو البقاء، لا الإصلاح والتغيير. وتحدِّد كرونِنْ سمةً أساسيّةً للنشاط الاحتجاجيّ «الثانويّ» (أي الذي تقوم به مجموعةٌ ثانويّة)، وهي أنه ردُّ فعلٍ أكثر من أن يكون فعلاً،[٢] لكون «الثانويين» بحسب تعريفها أقلَّ اهتمامًا أو قدرةً على طرح تصوّراتٍ جديدةٍ بديلةٍ للواقع المعيش ــ وهذا توصيفٌ غيرُ بريء للحركات الاحتجاجيّة الثانويّة لأنه يفترض أنّ «النُّخَب» هي دومًا مصدرُ التغيير (وإنْ لأهدافٍ استغلاليّةٍ أحيانًا)، وأنّ العامّة (ولاسيّما المعدَمون) عاملٌ محافظٌ مستسلمٌ لواقع الحال ولا يتحرّك إلاّ في وجه **المزيد** من الحرمان والتهميش. وبحسب هذه الرؤية لطبيعة الاحتجاج الثانويّ، فإنه يتميّز باستخدام أساليب «سلاح الضعفاء»: كالتكاسل في أداء العمل أو هجره، والرياءِ، والسرقةِ بمقادير صغيرة، والتظاهرِ بالجهل، والافتراءِ، والتخريب[٣] ــ وهي أساليبُ قام باستخدامها الفلاّحون في سوريا في مواجهة الإقطاع (وأحيانًا الدولة)، إلاّ أنّ الكتابات التاريخيّة التي أراجعها تدحض مقولةَ اقتصار العمل الاحتجاجيّ عليها.

يَصعب تكوينُ صورةٍ موحّدةٍ ومتجانسةٍ عن الفلاح السوريّ بعد قراءة كتاب حنّا بطاطو الموسوعيّ، **فلاّحو سوريا: متحدّرو وجهاء ريفها الصغار وسياستهم**. فهو يرسم لنا خريطة مفصّلة عن المجتمعات الفلاحيّة التي يتميّز بعضُها من بعض باختلاف الجغرافيا والدين والروابطِ الأسريّة والقبليّة وملْكيّة الأرض. فالفلاّحون البستانيّون مثلاً، كفلاّحي غوطة دمشق الخصبة، أكثرُ ارتباطًا بالمدن والبلدات من فلاّحي سهل حوران وجبل الدروز ووادي الفرات. وفلاّحو السهول يميلون إلى السلميّة (Pacifism)، بينما يتحلّى فلاّحو الجبال بصفات المحارب. والفلاّحون البدويّون «أقلّ صبرًا على الظلم» من فلاّحي الغوطة، أما فلاّحو الجبال فهم «الأشرسُ في حبّهم للحريّة والأصعبُ تسخيرًا لأغراض سياسيّة.»[٤] كما يقترح وجودَ ارتباط بين الميول الثوريّة (أو «التململ») لدى الفلاّحين، وانتمائهم إلى تيّاراتٍ دينيّةٍ محافظةٍ أو غير تقليديّة.[٥] وهنا تحديدًا يستفيض الكاتبُ في الحديث عن الحركات الصوفيّة التي كانت متغلغلة في الريف السوريّ قبل نشوء الدولة السوريّة الحديثة، بل بعدها أيضًا، فيصنّفها قوةً محافظةً في معظمها، كان الفلاّحُ يستعين بها وسيلةً هادئةً للحفاظ على نفسه من الانهيار في وجه الصعوبات التي يواجهها.[٦] ويعدّد بطاطو ممارساتٍ فلاحيّةً أخرى يمكن أن تُصنّف بمثابة سلاحٍ للضعيف: كتخبئة الحبوب لتفادي الضرائب من دون الاعتراض عليها، أو الرحيل عن الأرض والبحثِ عن أماكنَ لا تقع تحت سلطةٍ قمعيّةٍ مماثلة. ولكنْ، على الرغم من هذه الأمثلة لسلاح الضعفاء، فإنّ الفلاّحين يبرزون في كتابات بطاطو (وغيره من المؤرّخين في الأغلب) عناصرَ مكافحةً وثائرةً منذ العهد العثمانيّ ــ حين كانوا «يحرثون الأرضَ والبندقيّةُ على أكتافهم.»[٧] المتغيّر إذن، بحسب بطاطو، ليس الحراكَ الثوريّ للريف، بل درجة الوعيّ السياسيّ للفلاّح، ودوره (مقابل دور النخب) في هذا الحراك، وهو دورٌ ذو دلالة على مفهوم الفلاّح كمحرّكٍ للتاريخ. ولعلّ المدخلَ الرئيسَ لفهم هذا الدور في القرن العشرين هو علاقة الفلاّح بالدولة كنظامٍ سياسيّ وأداةِ تحديثٍ وتسلّطٍ في آن.

الفلاّح والدولة: علاقة دياليكتيكيّة

منذ خمسينيّات القرن الماضي يرتبط الحديثُ عن الفلاّح بنظريّات نشوء الدولة السوريّة.[٨] إحدى الدراسات الكلاسيكيّة لهذا النشوء كتابُ ريمون هنّيبوش، **الفلاّح والبيروقراطيّة في**

١ ــ ستيفاني كرونن (محرّرة)، **الثانويّون والاحتجاج الاجتماعيّ: التاريخ من الأسفل في الشرق الأوسط وشماليّ أفريقيا** (نيويورك: دار روتليدج للطباعة، ٢٠٠٨)، ص ٢.

٢ ــ تستثني الكاتبة الانتفاضةَ الفلسطينيّةَ من هذا التوصيف.

٣ ــ أنظر كرونن، ص ٣.

٤ ــ ٥ ــ ٦ ــ ٧ ــ أنظر بطاطو، ص ١٢، ١١١، ١٠٦ ــ ١٠٨، ١١٢.

٨ ــ انظر ريمون هنّيبوش، **الفلاّح والبيروقراطيّة في سوريا البعث: الاقتصاد السياسيّ للتنمية الريفيّة** (بولدر: وست ڤيو پرس، ١٩٨٩). يوصّف هنيبوش الدولة السوريّة في حينها بأنها هجينٌ من النماذج، بما فيها الدولة الرعويّة الراديكاليّة والفيبيريّة العقلانيّة والفيبيريّة النيو ــ بريتوريّة والدولة بالمفهوم الماركسيّ كأداة سلطةٍ للصراع الطبقيّ. أنظر الفصل الأول من الكتاب.

سوريا البعث: الاقتصاد السياسيّ للتنمية الريفيّة. يكاد ينحصر اهتمامُ هنيبوش بالعلاقة البنيويّة بين الفلاّح والدولة، فيبقى صوتُ الفلاّح وإرادتُه غائبيْن وسطَ استعراضٍ كثيفٍ لأطرٍ نظريّةٍ عن بناء الدولة والإصلاح. ويتناول هنّيبوش الخطط الإصلاحيّة التي لجأتْ إليها الدولةُ لربط القرية بها، وتشمل: إدخالَ التنوّع على المحصول الزراعيّ، وتوسيعَ شبكات الريّ، والتحديثَ التكنو ـ زراعيّ، وبالدرجة الأولى إعادةَ هيكلةٍ اجتماعيّة لحياة الفلاّح، وبخاصّةٍ عبر التعاونيّات الزراعيّة التي أُنشئتْ تحت حكم البعث وشكّلت الوحدةَ الأساسَ للنظام الزراعيّ الاشتراكيّ السوريّ[١] لأنها أدّت إلى بروز هيئاتٍ تمثيليّةٍ جديدةٍ للفلاّحين كاتحاد المجالس التعاونيّة. ويشوب العلاقةَ التبعيّةَ بين هذه الهيئات والدولة شيءٌ من الالتباس في نظر هنّيبوش: إذ يمكن عدُّ الاتحادات الفلاحيّة أداةً لبسط سيطرة النظام على المجتمع الفلاّحيّ، وأداةً يضغط الفلاحُ بها على النظام في الوقت نفسه؛ بينما تشكّل التعاونيّاتُ أجهزةً بيروقراطيّةً من جهة، ومراكزَ تضامنٍ وولاءٍ فلاّحيّيْن من جهةٍ أخرى.[٢]

يتعقّب هنيبوش المراحلَ المختلفةَ التي مرّت بها العلاقةُ بين الفلاّح والدولة، وذلك بحسب تقلّب القواعد الاجتماعيّة للفصيل الحاكم في حزب البعث (أراديكالياً بميولٍ ريفيّةٍ اشتراكيّة، أمْ «معتدلاً» ساعيًا إلى استقطاب شرائح الطبقة البورجوازيّة الصاعدة والمتمركزة في المدن)، مستنتجًا أنّ الكلمة الفصل كانت غالبًا للدولة. ولكنْ مع مرور الوقت، وخاصة خلال الأزمات (كهزيمة ٦٧، وتمرّدِ الثمانينيّات)، استطاعت الهيئاتُ الفلاّحيّة أن تفاوضَ الدولة، بل أن تمتنع أحيانًا عن الالتزام بالتدابير التي تفرضها عليها. هكذا إذنْ يَصعب أن نرسم حدودًا واضحةً بين سلطة الدولة وسلطة الفلاّح. ولمّا كان أحدَ الأهداف الرئيسة لمشروع بناء الدولة الحديثة هو الدمجُ المؤسّساتيّ للقرية بالدولة، فإنه يمكن الاستنتاجُ أنّ هذا المشروع لم يُكتبْ له النجاحُ بشكلٍ نهائيّ (أقلّه في القرن الماضي). فعمليّة الدمج كانت من القوة بحيث منعتْ عودةَ نظام إقطاعيّ أو شبهِ إقطاعيّ يتحكّم بالفلاّحين، ولكنها كانت أضعفَ من أن تحتوي قوى الإنتاج الزراعيّ بحيث تمنع الرأسمالَ الحرَّ من دخول دورة العمليّة الإنتاجيّة، ما أدّى إلى ظهور بورجوازيّةٍ مدنيّةٍ نافست الطبقةَ الفلاحيّة على النفاذ إلى آليّات الدولة لتجييرها لمصالحها.

لـمّا كان أحدَ الأهداف الرئيسة لمشروع بناء الدولة الحديثة هو الدمجُ المؤسّساتيّ للقرية بالدولة، فإنه يمكن الاستنتاجُ أنّ هذا المشروع لم يُكتبْ له النجاحُ بشكلٍ نهائيّ (أقلّه في القرن الماضي).

تبرز مركزيّةُ علاقة الفلاّح بالدولة في تاريخ سوريا الحديث في كتابات بطاطو وهنيبوش معًا. ولكنّ الأول يبتعد عن النقاش النظريّ المجرّد للدولة، وإن اتفق مع الثاني على أنّ المنظّمات الفلاّحيّة كالتعاونيّات جزءٌ من هيكليّة الدولة (مع احتفاظها بشيءٍ من الاستقلاليّة)، وعلى أنها تعكس نموّ وعي الفلاّح السياسيّ وتأقلمَه مع المتغيّرات السياسيّة المرافقة لصعود الدولة الحديثة. ويرسم لنا بطاطو صورةً معقّدةً عن صعود عناصر من أصل فلاحيّ إلى المؤسّسة العسكريّة، ومن ثم إلى المفاصل المدنيّة للدولة، مع ضرورة الإشارة إلى أنّ الكثير من هذه الفئات ليست من الطبقة الفلاّحيّة المعدمة بل من «الأشراف الصغار» كما ينعتهم بطاطو.[٣] ويشكّل هذا الصعودُ بابًا لدراسة الدور الفعّال، الفرديّ والجماعيّ، للفلاّح كصانعٍ للتاريخ.

صوتُ الفلاّح في التاريخ: الغائب الحاضر

أين صوتُ الفلاّح في ما تقدّم؟ بمعنًى آخر، هل «يتكلّم» الفلاّحُ في هذا التاريخ؟ في نصّ هنيبوش، تبدو الإشاراتُ إلى الفلاّحين أنفسهم، أيْ في معزلٍ عن هياكلهم التنظيميّة (كالاتحادات والتعاونيّات)، قليلةً ومتفرّقة، فلا نتعرّف فيها على النساء والرجال وراء هذه الهياكل. ويظهر الفلاّحُ بحسب هذه الإشارات هامدًا أو مذعنًا، أُمّيّاً، يفتقر إلى روح المبادرة، متخلّفًا اجتماعيًا وثقافيًا.[٤] قد يصوّره هنيبوش صاحبَ همّةٍ في عمله ومتمرّدًا أحيانًا، لكنه بحاجة دومًا إلى تعليم وتثقيف ونفَسٍ راديكاليّ ـ وهذه جميعًا بحسب الكاتب خطواتٌ ضروريّةٌ لخلق «وعي فلاّحيّ».[٥] وهي مهمّةٌ منوطةٌ بالدولة. ومع أنّ هنيبوش يشير إلى حالاتٍ محدّدةٍ من عدم رضا الفلاّح عن الوضع القائم، لكنه نادرًا ما يتناول تفاصيلَ هذه الحالات، عدا ذكر أسبابها كالخلاف على مشاريع ريّ أو إعادة تمويل أو تحديد لأنواع المحاصيل التي وجدها الفلاّحون غيرَ متماشيةٍ مع مصالحهم. ويقول لنا الكاتبُ إنّ الفلاّحين رفضوا أحيانًا الانضمامَ إلى التعاونيّات، وانتفضوا،[٦] وقاوموا عمليّة إعادة توزيع الأراضي، وعبّروا عن كراهيتهم لبعض إجراءات تنويع

١ ـ يتحدّث الفصل السابع للكتاب عن أهميّة هذه التعاونيّات في ظهور الاشتراكيّة الزراعيّة السوريّة وتمتينها في حينه.
٢ ـ هنيبوش، ص ٦٥.
٣ ـ بطاطو، ص ١٣٣ ـ ١٣٦.
٤ ـ لقراءة توصيفات سلبيّة للفلاّح، أنظرْ هنيبوش ص ٩٩، ١٠٤، ١٧٤. ولتوصيفات إيجابيّة، أنظرْ ص ٢٢١، ٢٢٩.
٥ ـ المصدر نفسه، ص ٦٥.
٦ ـ يشير هنيبوش بشكل مقتضب إلى انتفاضة فلاّحيّة عام ١٩٦٩، أنظر ص ٢٣٠.

مـحـاصـيلهم، ولكننا لا نطّلع على الأدوات والآليّـات التي اعتمدوها في تحرّكاتهم تلك. ويختصر هنيبوش المشكلة بأنها أزمةُ قيادة لدى الفلاّحين، معتمدًا في ذلك على التقارير الحكوميّة التي تقول إنّ مجالس التعاونيّات تلك تعاني فوضى تنظيميّةً وإنّ رؤساء هذه المجالس ما زالوا في حاجةٍ إلى تعلّم «الممارسات الديموقراطيّة لصناعة القرار والتعاون فيما بينهم.»[1]

ماذا عن واقع الفلاّحين اليومي؟ يصف هنيبوش بشكلٍ عابرٍ أوضاعَ سكن بعض الفلاّحين (بيوت الطوب في منطقة الغاب مثلاً).[2] أما بطاطو فهو أكثرُ اقترابًا من هنيبوش في وصف أوضاعهم المعيشيّة والتحوّلات الجذريّة في حياتهم، ولكنّ صوتَ الفلاّح العاديّ يبقى غائبًا في المجمل، رغم بعض الاستثناءات العابرة: كأنْ نقرأ مثلاً عن فلاّحٍ مسنٍّ يتأفّف من العائد السنويّ للزراعات البعلية ويصفه بـ «الشّللم بللم»[3] (وهو تعبيرٌ تركيّ يعني الشيءَ القليل أو اللاشيء)؛ أو كأن نستمع إلى فلاّحٍ آخر يتذمّر من تحلّل الروابط القبليّة ومن السلطة الزائدة للدولة. غير أنّ غيابَ صوت الفلاّح لا يمنع القارئَ من استشفاف تاريخٍ طويلٍ من المشاركة الفعّالة للفلاّحين في صنع تاريخهم. فبطاطو يحدّثنا عن ثوراتٍ عديدةٍ لفلاّحي القرن التاسع عشر لكنه يعزو معظمَها «إلى انتفاضاتٍ عفويّةٍ بدلاً من حركاتٍ منظّمة، وإنْ كانت في معظمها تحت قيادة أشرافٍ صغارٍ كرؤساء العشائر.» ولم يبرزْ وعيٌ فلاحيٌّ منظّم حتى القرن العشرين، حيث تعاظمتْ هذه الحركات الثوريّة في ظلّ الانتداب الفرنسيّ. ويشير بطاطو عرضًا إلى عدّة شخصيّات من أصولٍ فلاحيّةٍ متواضعةٍ لعبتْ دورًا في هذه الحركات أمثال: الحارس البستانيّ حسن الخرّاط الذي أصبح من قياديّي ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧، ومُزارع التبغ فؤاد الشمالي عضو الحزب الشيوعيّ. ومع ظهور الأحزاب الحديثة كالحزب العربيّ الاشتراكيّ وحزب البعث، بحسب بطاطو، تحرّرتْ أقسامٌ واسعةٌ من الطبقة الفلاحيّة الفقيرة من «الشعور بالجبْريّة المحبِطة» التي ورثتها عن الممارسات الصوفيّة التي كانت تعتنقها. وهكذا تحوّل الفلاّحون من «كتلةٍ اجتماعيّةٍ رخوةٍ وغير مترابطة، إلى طبقةٍ متناسقةٍ نسبيًا وذاتِ وعيٍ طبقيّ وأهدافٍ واضحةٍ إلى حدٍّ ما.»[4] «الروح المحرّكة» لهذا التحوّل، في رأي بطاطو، هي أكرم حوراني، الذي يشير بطاطو الى أصوله الدينيّة والفلاحيّة وقدراته القياديّة (فضلاً عن الحزب الشيوعيّ في الأربعينيّات والخمسينيّات رغم احتكار بعض عناصر الإنتلجنسيا لزمام قيادته).[5] الفلاّحون في رؤية بطاطو، إذنْ، فاعلون في العمل السياسيّ الفلاحيّ، وإنْ كانوا في الأغلب في الصفوف الدنيا من القيادة، وقصصُ تجربتهم المعيشة وأصواتُهم الفرديّةُ تقبع صامتةً في ظلال الصوت الجماعيّ للعمل السياسيّ ـ الطبقيّ.

يحاول المؤرِّخ السوريّ عبد الله حنّا، من جهته، أن يكسر جدارَ الصمت المضروبَ حول رؤية الفلاّحين لأنفسهم، جامعًا في عمله بين التاريخ المكتوب والشفهيّ، وينجح إلى حدّ بعيد في ذلك. يؤكّد حنا في كتابه، **الفلاّحون وملاّك الأرض في سوريا القرن العشرين : دراسة تَجْمع بين التاريخ الشفهيّ والتاريخ المكتوب**، صورةَ الفلاّح الذي جاهد بقوةٍ لمحاربة قمع مالك الأرض واستطاع تغييرَ الوضع القائم. وهو يستعين، خلافًا لبطاطو وهنيبوش، بالروايات والشهادات الحيّة لينسجَ تاريخًا غنيًا عن الفلاّح السوريّ. فيشير مثلاً إلى ما كان رائجًا في الريف من الأشعار والأمثال الشعبيّة التي كانت تصف أحوالَ الفلاّحين أو تسخر من أربابهم.[6] غير أنّ تحرّكات الفلاّحين لم تقتصرْ على الأشعار والأمثال ممّا يمكن نعتُه بـ «سلاح الضعفاء»: ففي بلدة بعرين في منتصف الثلاثينيّات فرّ فلاّحٌ رفض إمضاءَ عقد عملٍ مع أحد ملاّك الأراضي وجنّد محاميًا للدفاع عنه (بعد أن جُلد زملاؤه)، ثم قام الفلاّحون بعرض شكواهم على الحاكم المحليّ الذي اكتفى بالردّ أنه ينتمي إلى عائلة الكيلاني الأرستقراطيّة التي تملك الدولة لا العكس.[7] وفي حالةٍ أخرى، وبحسب شهادةٍ حيّةٍ لمُزارعٍ مُسنّ، استنجد الفلاّحون برئيس قبيلةٍ للاحتماء من آخرَ، لقاءَ إعطائه خُمسَ محصولهم. ويؤكّد حنّا وجودَ تقليدٍ طويلٍ لدى الفلاّحين من تقديم العرائض الاحتجاجيّة إلى السلطات، فضلاً عن وسائلَ أخرى خلاّقة. ففي ظلّ الانتداب الفرنسيّ في أواسط العشرينيّات مثلاً، ضمّ فلاحون من خمس قرى مواردَهم (بما فيها ما جنوْه من بيع قطع صيغةٍ لزوجاتهم)، واستأجروا محاميًا لرفع دعوى ضدّ مالك الأرض، وعندما خسروا الدعوى انتدبوا وفدًا منهم لتسليم عريضة احتجاج إلى المفوّض السامي الفرنسيّ، وحين رفض المفوّض استقبالَ الوفد رمى فلاّحٌ نفسَه

١ ـ ٢ ـ المصدر نفسه، ص ١٨٣، ٢٢٢.

٣ ـ بطاطو، ص ٥١.

٤ ـ أنظر بطاطو، ص. ١٢٤.

٥ ـ يعطي خطابٌ لأمين عامّ الحزب الشيوعيّ آنذاك (١٩٥٣) خالد بكداش فكرة وافيةً عن رؤية النخب لدورها في دعم حقوق الفلاّحين. فبكداش يتحسّر على فشل حزبه في بناء حركة حزبيّة متينة، عازيًا ذلك إلى الفشل في تجذّر الكادرات الحزبيّة بين عموم الفلاّحين. المفارقة أنّ بكداش نفسه، بحسب بطاطو، عمل على تنحية العناصر الفلاحيّة من المراكز القياديّة في الحزب! أنظر بطاطو، ص ٢٥٠.

٦ ـ لمثال من هذا الشعر، أنظر: عبدالله حنّا، **الفلاّحون وملاّكُ الأرض في سوريا القرن العشرين: دراسة تجْمع بين التاريخ الشفهيّ والتاريخ المكتوب** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٣)، ص ٢٦٧.

٧ ـ المصدر السابق، ص ١٤٩.

ستيفاني كرونِنْ وحنّا بطاطو.

أمام سيّارة المفوّض، فاضطُرّ هذا إلى تسلّم العريضة.[١] ولعلّ أكثرَ الحملات الفلاّحيّة تنظيمًا ونجاحًا هي التي أُطلقتْ ضدّ المَلاّك والسياسيّ السوريّ المشهور آنذاك، أحمد الرفاعي؛ فقد استخدم الفلاّحون ضدّه أساليبَ شتّى: من المقاومة العنفيّة، إلى تقديم العرائض، والمسيرات الاحتجاجيّة، والاعتصامات في دمشق، والادّعاء ضدّه أمام المحاكم. وقد خسروا بعضَ حملاتهم، وربحوا البعضَ الآخر. وكانت هذه الاحتجاجات تتمّ بالتنسيق مع الحزب الاشتراكيّ العربيّ. وفي حين يركّز بطاطو على حوراني وغيره من القياديين عند سرد هذه الحركات الاحتجاجيّة، يهتمّ حنّا بشهادات الفلاّحين أنفسهم، ويعزو هذه الأحداثَ إلى إرادتهم هم بالمقاومة. هكذا ينتقل بنا حنّا من قريةٍ إلى أخرى، ليرسم صورةً حيّةً عن تاريخ الاحتجاج الاجتماعيّ في الريف السوريّ.

وفي المقابل، تتّسم صورةُ الفلاّح المقاوم للظلم عند حنّا بشيء من الرومانسيّة. وهو لا يعير الاهتمامَ نفسَه الذي يوليه بطاطو للتمييز بين الطبقات والأنماط المختلفة للفلاّح (البستانيّ مقابل الزراعيّ، أو فلاّح الأجرة مقابل الفلاّح المالك لأرضه).

والحقّ أنّ مسألة تمييز أنماط الفلاّحين المختلفة، وخاصةً بناءً على نسبة امتلاك الفلاّح لوسائل الإنتاج (الأرض بالدرجة الأولى)، تصبح أكثر أهميّةً عند الحديث عن تاريخ الفلاّح بعد عقد السبعينيّات الذي شهد قدومَ حافظ الأسد إلى الحكم، فضلاً عن تحوّلٍ تدريجيٍّ نحو اقتصاد السوق. فقد شهدتْ هذه الحقبة تحوّلاتٍ مهمّةً في التركيبة الاجتماعيّة لطبقة الفلاّحين تحت تأثير المدّ النيوليبراليّ، زادت من التفاوت الطبقيّ بينهم أنفسهم، بحسب أطروحة فوكر بيرتيز في كتابه، **الاقتصاد السياسيّ لسوريا في عهد الأسد**، إلى درجةِ أنّ مصالحَ بعضهم ممّن ينتمون إلى الطبقة المتوسّطة أصبحتْ أكثر تلاؤمًا مع كبار المُلاّك لا مع الفلاّحين من الطبقة الدنيا. ويشير بيرتيز إلى تدهور أوضاع الفلاّحين الفقراء، ولاسيّما العمّال الزراعيّون الذين كانوا يملكون قطعَ أرض صغيرةً لم يستطيعوا استثمارَها بشكلٍ فعّال في وجه أسعارِ السوق المنخفضة، فزادوا من الاعتماد على الاستدانة أو على الاستعانة بالملاّكين الكبار لسدّ عجزهم الماليّ في ظلّ غياب ضمانٍ اجتماعيّ كافٍ لهم.[٢] وقد أدّى هذا الإفقارُ الى نموّ أعداد فلاّحي الأجرة، وإلى هجرتهم من الريف للبحث عن أعمالٍ بديلة، فتحوّلوا بذلك إلى «فقراء مدن،» وهو ما يعني تحولاً دراماتيكيّاً في نمط معيشتهم. ويستنتج بيرتيز من ذلك أنّ خطوط الصراع الاجتماعيّ الرئيسة لم تعد بين الفلاّح ومالك الأرض، أو بين الفلاّح والدولة، بل بين

١ ـ للاطّلاع على أسماء القرى المشاركة والفلاّحين المشاركين في هذه الحملة، أنظر المصدر نفسه، ص ١٤٣.

٢ ـ فوكر بيرتيز، **الاقتصاد السياسيّ لسوريا في عهد الأسد** (نيويورك: دار ساينت مارتن للنشر، ١٩٩٥)، ص ٨٤ ـ ٨٥.

طبقةٍ وسطى ميسورةٍ تمثّل قاعدةَ النظام المتنامية وطبقةٍ ريفيّةٍ ومدينيّةٍ فقيرةٍ أو معدمة. وعليه، يصبح استخدامُ مصطلح «الطبقة الثانويّة» (سبأَلترن) أكثرَ ملاءمةً لهذه الفئة الجديدة من الفقراء ذوي الجذور الريفيّة.

غير أنّ بيرتيز، وإنْ تحدّث عن البيئة الاقتصاديّة والسياسيّة التي تنتج هذه الطبقة، فإنه لا يصوّرها لنا عن قربٍ كما يفعل عبد الله حنّا مع فلاّحي الجيل السابق. وهذا يعني وجودَ مادّةٍ تأريخيّةٍ بحاجةٍ إلى دراسةٍ أكثر عمقًا وتحليلاً. والحال أنّ فقراء الفلاّحين النازحين من الريف ليسوا وحدهم غيرَ ممثّلين في الكتابات التاريخيّة عن سوريا بشكل وافٍ، بل هناك أيضًا إشاراتٌ غير وافيةٍ إلى وضع **الفلاّحات** ودورهنّ في العمل الزراعيّ والنضال الفلاّحيّ. نعم، إنّ بطاطو ليشيرُ إلى تقاضيهنّ أجورًا أدنى من الذكور؛ بل كانت هذه أحيانًا تتمّ بالمقايضة، بينما يُدفع للذكور نقدًا. كما يشير إلى زيادة نسبة الفلاّحات المتغيّبات عن المدرسة في المرحلة ما بعد الابتدائيّة مقارنةً بالذكور. أما في مجال النضال الفلاّحيّ النسويّ، فيورد حنّا أمثلة قليلة، لكنّها ذاتُ دلالةٍ تاريخيّة، على دور المرأة الريفيّة، إعدادًا ومشاركةً وهتافًا في مسيرة دمشق المذكورة آنفًا. كما يشير بيرتيز إلى تعاظم دور المرأة في المجتمع الريفيّ السوريّ بسبب زيادة نسبة هجرة الذكور إلى المدن، وهي هجرةٌ يغذّيها النموُّ السكانيّ وانحسارُ مساحة الملْكيّة الزراعيّة الفرديّة. لكنّ التعرّف على الأوضاع المعيشيّة والعائليّة للفلاّحات ما يزال يفتقر إلى درجةٍ عاليةٍ من الشفافيّة بسبب الشروط التي أحاطت بجمع المعلومات، كالتعرّف على أوضاعهنّ عبر الحديث مع أزواجهنّ أو بحضور أزواجهنّ أثناء المقابلة.(١)

خاتمة: نحو إحياء التأريخ الفلاّحيّ وتحديثه

شهد القرن العشرون تحوّلات في الحياة الريفيّة في سوريا، بما فيها المكننةُ الزراعيّة، وقيامُ الدولة المركزيّة، وإعادةُ هيكلة الملْكيّة الزراعيّة، والنزوحُ. وبرغم مشاركة الفلاّحين بشكلٍ واسعٍ في صناعة هذه الأحداث، فإنّ النُّخَب تلقي بظلالها بقوةٍ على مسيرة هذا التاريخ. وعلى وعي بعض المؤرّخين لهذه المعضلة، فإنّ معظمَهم يقعون في الفخّ ذاته. فمايكل پروڤنز ينتقد الأعمالَ التأريخيّة التي تصوّر تاريخَ سوريا وكأنه تاريخُ مجموعةٍ صغيرةٍ من العائلات والأشراف.(٢) وهو يشير في كتابه **الانتفاضة السوريّة الكبرى وصعود القوميّة العربيّة** إلى دور العامّة في هذه الانتفاضة(٣) (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) بعد أن كانت النخبُ أكثرَ تحكّمًا بالعمل السياسيّ الشعبيّ في سوريا. ولكنْ، على الرغم من ذلك، فإنّ سرد پروڤنز الغنيّ لأحداث انتفاضة ٢٥ ـ ٢٧ يركّز بمعظمه على النخب القائدة للانتفاضة، وفي مقدّمتها طبعًا سلطان الأطرش.

باختصار، تعطينا الدراساتُ الإحصائيّةُ معلوماتٍ وافيةً بالأرقام عن المتغيّرات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للمجتمع الفلاّحي السوريّ، غير أنّ رواية الفلاحين لهذه المتغيّرات كما يروْنها، ذكورًا وإناثًا، ماتزال غيرَ محكيّةٍ أو مدوّنةٍ بشكلٍ وافٍ (وقد تكون كتاباتُ عبد الله حنّا استثناءً). بيْد أنّ غياب رواية الفلاّح بتفاصيلها عن معظم الكتابات التأريخيّة الذي يتناولها هذا البحثُ لا يعني عدمَ قدرتنا على استخلاص عدد من الحقائق حول المجتمع الفلاحيّ السوريّ بناءً على هذه الكتابات.

وأوّلُ هذه الاستنتاجات أنّ الفلاحين في سوريا لم يكونوا أبدًا وحدةً مجتمعيّةً متراصّةً، بل جزءٌ من تراتبيّةٍ طبقيّةٍ متغيّرةٍ عبر الزمن. وثاني الاستنتاجات هو أنّ تاريخهم غنيٌّ بالنضال الاجتماعيّ والحراك السياسيّ، ويمتدّ إلى ما قبل القرن العشرين، وإنْ شهد ذلك القرنُ تبلورَ وعيٍ طبقيّ أكثر وضوحًا تحوّلَ إلى قوّةٍ سياسيّةٍ فاعلةٍ تركتْ بصماتِها على بنية المجتمع والدولة. وثالث الاستنتاجات هو أنّ صورة الفلاّح الذي شارك في هذه التحوّلات تدحض بعضَ مقولات كرونِنْ عن تأريخ المجتمع الفلاّحيّ في الشرق الأوسط، ولكنها تشير إلى أنّ كتابة تاريخ الفلاّحين كطبقةٍ ثانويّةٍ تحتاج إلى المزيد من الدراسة، وربّما إلى التركيز على الشرائح الفلاّحيّة الدنيا (كالمأجورة أو التي تحوّلتْ الى طبقةٍ عاملةٍ مدينيّة كالتي يصفها بيرتيز). وقد يكون البحثُ الإثنوغرافيّ، الذي يعتمد على التاريخ الشفهيّ والمتجدّد لهذه الشرائح الدنيا (وهو ما يعتمده حنّا في كتاباته المتأخّرة عن المجتمع الفلاّحيّ عامّةً) هو المنهج التاريخيّ الأنجع لهذا الغرض، كي لا يبقى التاريخُ الفلاّحيّ في سوريا عنهم... بل بهم أيضًا.

تورنتو

---

١ ـ م. عبد العالي ـ مارتيني (محرّر)، «نحو تأنيث العمل الزراعيّ في شمال غرب سوريا،» **مجلة الدراسات الفلاحيّة**، مجلد ٣٠، عدد ٢، ٢٠٠٣، ص ٧١ ـ ٩٣.

٢ ـ يقول پروڤنز إنّ أعمال بطاطو و فيليب خوري التأريخيّة، وهي أعمالٌ شامخة، تكاد تنحصر بسياسة المدن والنخب. راجع: مايكل پروڤنز، **الانتفاضة السوريّة الكبرى وصعود القوميّة العربيّة** (أوستن: دار جامعة تكساس للنشر، ٢٠٠٥).

٣ ـ المصدر نفسه، ص ٢٢.